



من العجيب جدا أن يأمر الله تعالى نبيه إبراهيم أن ينقل ابنه البكر وزوجته الشابة ويضعهما في ذلك الموضع، في وادٍ مَقْفَرٍ غير ذي زرع، حيث لا ماء ولا حياة ولا معين أو كفيل من الناس. فصدع إبراهيم عليه السلام كما صدعت زوجته السيدة هاجر بأمر الله. ومضى إبراهيم عليه السلام بعد أن دعا ذلك الدعاء الذي يفطر القلب، وهو يترك عَرْضَهُ وفلذة كبده في ذلك الموضع الموحش. ولكن ما إن نفذ الزاد ونفذ الماء حتى استدر سعي السيدة هاجر وبكاء الرضيع إسماعيل عليه السلام رحمة الرحمن الرحيم، فانفجر زمزم بماء سلسيل جلب الناس المحيطين كي يقطنوا هذا الوادي الأجرد، ويصبح هذا الوادي ممتلئا بالحياة ويعود قرية بل أم القرى التي نشأت فيها الحضارة في زمن سحيق وعصر عتيق. ثم عاد إبراهيم عليه السلام إلى هذه البلدة الصغيرة كي يرفع قواعد البيت العتيق هو وإسماعيل عليهما السلام، ويطهرا بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود، ثم ليؤذن في الناس بالحج فيأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق.

أول بيت وُضع للناس .. رمز لنعمة عظيمة

القرآن الكريم اسم بانبه الأول وزمن هذا البناء وإنما أشار أنه البيت الذي سبق كل البيوت. وكان البيت قبل أن تكون مكة وقبل أن تدعى بهذا الاسم. وكان عندما لم يكن الناس منقسمين إلى شعوب وقبائل، بل كانوا في أول خطواتهم تجاه الحضارة. فعندما أراد الله تعالى أن ينقل الناس من مخلوقات لا تعرف الحضارة إلى أناس متحضرين، كان أول شيء قد هداهم الله تعالى إليه هو طريقة بناء البيوت بعد أن كانوا يسكنون الكهوف ويقطنون الغابات. فجاء وحي الله تعالى بالتصميم الأولي لهذا البناء الذي كان اللبنة الأولى في نهضة البشرية. كذلك بما أن الناس لم يكن لديهم الوسائل اللازمة لتجهيز أحجار هذا البناء كالأدوات الحديدية على سبيل المثال، فقد أرسل لهم الله تعالى هذه الحجارة أيضا. فاسقطها حجارة نيزكية اخترقت الغلاف الجوي فأصبحت سوداء اللون نتيجة احتراقها. وكانت بأحجام يمكن أن يتم استخدامها في بناء جدران هذا البناء البسيط. فكانت هداية الله ووحيه هي الخطوة الأولى في نهضة البشرية والمدنية، كما أن المواد الخام كانت هدية من الله تعالى أيضا. أي أن هذا البيت أصبح رمزا لإنعام الخالق الرحمن عز وجل الذي جاء في

ولعل من أهم ما هو ملفت للنظر هو أن إبراهيم عليه السلام لم يبن بيتاً للعبادة في موضع آخر كبلاد الشام التي كانت مسرح أحداث معظم أيام حياته، بل أعاد بناء هذا البيت في هذا الموضع، كأنه يريد أن يشهد العالم أجمع أن الدين الذي سينشأ في هذا المكان هو الدين الذي كنت أحلم به وأدعو له، وهو الدين الذي سيجتمع الناس كما جمعهم نداؤه للحج إلى هذا البيت، والذي بقي حيا في قلوب العرب فترة طويلة من الزمن بشكل مذهل، مع أنهم كانوا قد نسوا كل ما جاء به إبراهيم عليه السلام من تعاليم تقريبا.

واستمر العرب في الحج إلى هذا البيت الذي كانوا يعظمونه وهم في جاهليتهم. وجاء الإسلام وني الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليجعل الحج إلى هذا البيت العتيق ركنا من أركان هذا الدين، بعد أن طهره من دنس الشرك ومن رجس الأوثان. ولكن المثير للاهتمام هو كل هذا التركيز على هذا البيت. وهذا ما أشار إليه القرآن في بيان موجز ولكنه غاية في الشمول والكمال. فقد بين القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾. أي أنه أول بيت وضع للناس. ولم يقل القرآن الكريم أنه أول معبد أو أول مسجد وضع لعبادة الله مثلا. ولم يذكر

الأطهار تبعوه فيما فعل دون أن يسألوه. وقد وقف به سيدنا عمر رضي الله عنه وقال قولته الشهيرة « والله إنني أعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقبلُك ما قبلتُك». وقد كان من العجيب أن يستلم الرسول حجرا ويقبله والمسلمون مازالوا حديثي العهد بالإسلام بعد وثنية ألفوا عليها آباءهم. وهذا الفعل الذي قد يبدو قريبا من الوثنية قد فعله المصطفى صلى الله عليه وسلم لحكمة عظيمة جدا، أهم ما فيها هو أن يأخذ المؤمنون من الرسول صلى الله عليه وسلم ما يأمرهم به دون أن يدركوا الحكمة من وراء ذلك دائما. فهو رمز لطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والأخذ بما أمر به. كذلك فإن خلف هذا التقبيل جانب حكمة عظيمة آخر وهو كأن الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا التقبيل يستذكر نعمة الله تعالى ويقبلها كما يقبل الحبيب هدية حبيبه. فهذا التقبيل هو من باب تقبيل ما هو من أثر الحبيب، وهكذا يصبح الحجر هدية عظيمة. فهذا الحجر هو جزء من هذه الهدية المباركة التي تجلت في الوحي ببناء أول بيت وأول خطوة في الحضارة الإنسانية والتي رافقها تقديم أحجار البناء أيضا عندما لم يكن للناس حيلة كي يصنعوا ويجهزوا بها الأحجار. فهو حجر لا يضر ولا ينفع وقد صدق الفاروق في ذلك، ولكنه بقية هدية المولى الرحمن الرحيم للناس أجمعين. ويشتمل الحج على شعائر أخرى كالسعي الذي يذكر بفيض رحمة الله تعالى عند اشتداد الأزمات. وكالرجم الذي يذكر الناس بأن الله هو رب الناس وملكهم وإلههم وليس الشيطان الرحيم. والوقوف بعرفة الذي يذكر الناس بضرورة التوجه لله تعالى ورجاء الرحمة منه. والذبح الذي يذكر بذبح النفس الأمانة والخضوع كلية لله تعالى ولأوامره، وغيرها من الأمور التي أداها المصطفى صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من بعده اقتداءً به ومن ثم ملايين الملايين من المسلمين من يوم الحج الأكبر إلى يوم الدين. نرجو من الله تعالى أن يقرب أيام نصره وفتحه المبين، وأن يحقق نصرة الإسلام على الدين كله، فيتوجه الناس جميعا من المسلمين وغيرهم إلى الله رب العالمين. فيكون البيت مثابة للناس جميعا، وأمنًا تحت ظل خير أمة جعلها الله في خدمة الإنسانية جمعاء. أمة تكون مظهرها لعبودية رب العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقت لم يكن الناس يعلمون أو يقدرّون أن ينشئوا فيه أبسط أوليات السمدنية والحضارة. فهكذا كان هذا البيت هو الحلقة الأولى من حلقات الرقي الإنساني التي وصلت إلى مراحل لم يعد فيها الناس يذكرون هذه البداية المتواضعة. ولا شك أنه قد قام الناس بعدها ببناء بيوت تشابه هذا البناء في تلك البلدة كي يسكنوا فيها. فكانت تلك البلدة هي أول قرية على وجه الأرض ولهذا فهي أم القرى. ومضت القرون ونسي الناس هذا البيت وانمحت آثاره. فجاء إبراهيم عليه السلام ليعيد للناس هذا البيت وبالتالي ليعيد لهم هذه الذكرى. ولكي يذكروا نعمة الله عليهم. ولكي يعودوا آمنين لهذا البيت بعد أن فرقتهم العصبية والانتماءات، فيعودوا كأمة واحدة تذكر نعمة الله تعالى وتأتي كي تتذكر هذه النعمة العظيمة التي أصبح هذا البيت رمزا لها.

وهكذا فإن أولى الناس بهذا البيت هم المسلمون أتباع سيدنا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي كان مضمون رسالته يتلخص في جمع الناس كي يوحدوا الإله الخالق المنعم. فكما أن هذا البيت للناس، فهم ورسالتهم ما هم إلا للناس وللخدمة الناس والإنسانية على وجه الأرض. لأنهم «خير أمة أخرجت للناس». وكان الحج بمثابة تأكيد على وحدة الأمة الإسلامية أولا، وعلى هدفها السامي وهو توحيد البشرية والناس أجمعين والعمل على تحقيق الخير والازدهار للناس كافة دون تمييز. فهذه هي رسالة الحج الأولى التي يريد الله تعالى أن يوصلها للناس وللمسلمين خاصة، فعسى أن ينتفعوا بها جميعا.

وللحج شعائر تتضمن رسائل محددة للمؤمنين. فالطواف بالبيت هو استذكار لنعمة الله الذي هدى وأعطى في البداية وما زال عطاؤه مستمرا. أما استلام الحجر أثناء الطواف فيتضمن رسالة مهمة أيضا. فقد شاء الله تعالى أن يضع المصطفى صلى الله عليه وسلم الحجر بيده عند إعادة بناء الكعبة قبيل بعثته الشريفة. فوضع الحجر على عباته الطاهرة ثم رفعه جماعة، كل واحد منهم يمثل قبيلة، ثم تناوله بيده الشريفة ووضع في مكانه. وهذا الحجر له خصوصية لأنه البقية الباقية من الأحجار السوداء الأولى التي بُني بها البيت أول مرة. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله. ولم يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم سبب هذا التقبيل ولكن الصحابة الأحيار